معلمة مدينة فاس

■ كانت استضافة رقيقة، ذات صباح ربيعي مشرق، بروض زاه بزخارفه ونقوشه، بأزهاره و وروده، حظيت أثناءها بمجالسة أحد العلماء الأكاديميين، والمؤلفين الموسوعين، الأستاذ عبد العزيز ابن عبد الله، حيث تحدث في موضوعات مختلفة تاريخية وأدبية، سياسية واقتصادية، بروح مرحة، وأسلوب بسيط..

■ كان عالما متواضعا، يُفيد بمعلوماته وتصوراته، ويُطلع على ما خفي على الفكر من نظريات وآراء، ويتحدث عن مماحكات الغرب ومضايقاته، وعن الواقع المتردي للعرب المسلمين مما يؤذي، فهو عالم متفتح سواء تعلق الأمر بقراءاته وكتاباته أو علاقاته ومشروعاته، فلا يسع المرء إلاّ أن يصغي إليه ويفيد منه، ومما تسجله ذاكرته من وقائع وأحداث، وخواطر وأفكار.

ولعل ما استأثر بالحديث، خلال هذه الجلسة، ما كتبه عن المدن المغربية، فهو شغوف بوطنه، حريص على التعريف بمدنه على اختلافها، ومن ثم كانت كتاباته عنها معالم زاهية، وعوالم ضافية، تشرق أبهاؤها وتضيء ردهاتها بما سجله قلم الأستاذ الأكاديمي عبد العزيز ابن عبد الله.

كتب عن «سلا أولى حاضرتي أبي رقراق»، وعن «رباط الفتح بين عاصمة شالة وعاصمة القصبة»، وعن «مراكش عاصمة العدوتين»، وعن «القصر الكبير» وعن «المغرب ومميزاته وخواصه الجغرافية»، وكلها كتب حظيت بالنشر في السنوات الأخيرة.

ومن منجزاته المخطوطة، وقد أطلعني عليها مشكوراً كتابه عن «فاس عاصمة الفكر في القارة الإفريقية»، وهو عمل متميز يغوص في أعماق تاريخ مدينة فاس، تشييدا وبناء، حضارة وعمراناً، تاليفاً وتعليماً، لم يترك الأستاذ ابن عبد الله بابا من أبواب التاريخ إلاّ ولجه، ولا محطة من محطات العطاء إلا اقتحمها معرفاً بكل محطة، مدققاً في رسم الملمح والصورة، مثبتاً الأقوال بالأدلة التاريخية المادية، وبالشهادات الموثقة الرصينة.

يشكل كتاب «فاس عاصمة الفكر في القارة الإفريقية» نمطاً جديداً في الكتابة عن المدن، أطلق من خلاله المؤلف العنان لقلمه كي يجول في ساحات المدينة وأبوابها، وفي بطون القبائل وأفخاذها وفي ردهات المساجد والمدارس والمكتبات، ومن ثم ليخلص إلى:

- وضع بيبليوغرافيا شاملة عن أعلام مدينة فاس ورجالاتها، موثقاً لذلك بالمصادر القديمة والمراجع الحديثة، منبهاً إلى مؤلفات هؤلاء الأعلام المخطوطة والمطبوعة، مع إشارات إلى أرقامها وأماكنها وطبعاتها، إلى غير ذلك.

- رصد المعالم الحضارية للمدينة: الأبواب، الحمامات، الزوايا، الخزانات.

- القبائل والجماعات.

- الاقتصاد والاجتماع

- العلماء المفسرون والمحدثون

- المذاهب الأربعة

- القضاء والقضاة.

- أمراء وولاة فاس

- الشيوخ مساعدو السلطان

- الوزراء والكتاب

- الشعر والشعراء

- العلوم التجريبية والكونية

- السفراء

- الجيش وحركاته

ويختم المؤلف كتابه بفهرس للمصادر والمراجع العربية والأجنبية، وبملحقين الاول حول «فاس والعالم العربي» والثاني حول «جامعة القرويين ومدارس فاس».

وأخيرا، فان هذا الكتاب يعتبر معلمة تاريخية عن مدينة فاس، ومصدرا توثيقيا من مصادر تاريخها عبر العصور، بل منذ التأسيس الى يومنا هذا، كشف المؤلف من خلاله عن قدرة كبيرة على التتبع والاستقصاء وتوثيق المعلومات بروح الباحث الشغوف بالبحث، المدمن على القراءة، السابح في عوالمها، القادر على استخلاص حقائقها، وانتقاء معانيها، لتعلق كتاباته فيما بعد بالآذان، وتسرع الى الأذهان لتخليد صفحات مشرقة من تاريخ المدينة المغربية العريقة...

د. نجاة المريني